نشأة وتطور البريد في الدولة العربية الإسلامية حتى عام ٨٦ هجرية

د. قيس حاتم هاني الجنابي
جامعة بابل/ كلية التربية الأساسية

المقدمة

إن مما لا شك فيه إن المقياس الحقيقي لرقي الأمم هو مدى تطور أجهزتها الإدارية فيها، والدولة العربية الإسلامية واحدة من الدول التي شهدت رقياً حضارياً قل مثيله لأنه كان شاملاً لكل محافل الحياة السياسية والإدارية، وشمل نظماً إدارية لم يكن للعرب فيها باع طويل بل أخذوها عن الأمم التي سبقتهم، فطوروها وأضافوا لها فأبدعوا، وصقلوها بما يتلاءم وشريعتهم الإسلامية، وكان أحد هذه النظم هو نظام نقل الأخبار بين الأطراف المختلفة داخل الدولة وخارجها، وهو ما يصطلح عليه بنظام البريد المعروف حاليا بنفس التسمية، وهذا هو موضوع البحث، وحدد بفترة الدولة العربية الإسلامية حتى عام ٧٦ هجرية.

وقسم البحث إلى ثلاث مباحث، أعطينا في التمهيد تعريفاً للبريد وشيء عن مسالكه ورسله، وفي المبحث الأول ذكرنا البريد في عهد الرسول ﷺ، وتطرقنا فيه إلى اتخاذ الرسول ﷺ خاتم لختم الرسائل وهو ما عرف بخاتم النبوة، ثم أوضحنا كيفية افتتاح كتبه صلى الله عليه وسلم إلى الملوك، أما المبحث الثاني فحمل أخبار البريد في عهد الخلفاء الراشدين ﷺ لاسيما مهام البريد العسكري، ثم نوهنا إلى النفقات على البريد وعملية وضع تاريخ على الرسائل وابرز كتاب الخلفاء الراشدين ومحاولة تزوير الخاتم، وخصصنا المبحث الثالث للبريد في عهد الدولة الأموية حتى عام ٨٦ هجرية لنستعرض بعد ذلك احد أهم الدواوين تلك المدة ألا وهو ديوان البريد فذكرت بعضاً عن صاحبه وعماله.

واعتمدنا في بحثنا على عدة مصادر أولية كان أهمها كتاب الطبقات الكبرى لمحمد بن سعد (ت٢٣٠هـ)، وكتاب فتوح البلدان للبلاذري (ت٢٧٩هـ) وهذا الكتاب قد أمدني بتعريف لمصطلح البريد ومسالكه ومسافاته، وكتاب تاريخ الرسل والملوك للطبري (ت٣١٠ هـ) فقد أفادنا هذا الكتاب بنماذج من رسائل الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الملوك، وأخبار التبادل البريدي بين الخلفاء وقادتهم، فيما يأتي قدامه بن جعفر (ت٣٢٩هـ) بشرح لعهد البريد في كتاب الخراج وصناعة الكتابة أمدنا بمعلومات مهمة عن البريد في تلك الفترة، ثم يشرح لنل القلقشندى (ت٨٢١هـ) النواحي الأدبية والبلاغية في كتابه صبح الأعشى في صناعة الإنشا، أما من الكتب المتأخرة فاعتمدت على كتاب نظام الحكومة النبوية المسمى بالتراتيب الإدارية لعبد الحي الكتاني ففيه سرد لهذا الجانب الإداري في عهد الرسول ﷺ، فضلاً عن الفائدة الكبيرة التي حصلت عليها من أطروحة الدكتورة خولة عيسى الفاضلي التي تقدمت بها إلى كلية الآداب عام ١٩٨٥م والموسومة نشأة البريد وتطوره في الدولة العربية الإسلامية.

التمهيد

اختلف المؤرخون في أصل كلمة بريد فبعضهم يرجعها إلى أصل عربي ومعناه المسافة بين محطتين، أو أن البريد يعني الرسل على دواب البريد، والجمع هنا: بُرُد، وبَرَدَ بريداً أي أرسله، والبريد يعني أيضاً الرسول وإبرادُهُ إرساله[١]، وهناك من يعيده إلى أصل فارسي، فقد جاء في اللسان أيضاً: البريد كلمة فارسية يراد بها الأصل البَرْد وأصلها (بريدهُ دُمُ) أي محذوف الذنب لأن البغال التي تحمل البريد كانت محذوفة الأذناب كعلامة لها، فأعربت وخففت[٢]، ومهمة البريد نقل الأخبار والرسائل بين المدن في الداخل والخارج.

---

[١]. ابن منظور، جمال الدين بن مكرم الأنصاري (ت٧١١هـ)، لسان العرب، مطابع كوسناتسوس، القاهرة، (د.ت)، ج٣، ص٥٣.

[٢]. القلقشندي، أحمد بن علي (ت٨٢١هـ)، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، مطابع كوتساتسوماس، مصر، (د.ت)، ج٦، ص١٤.

ويرجع نظام البريد إلى فترة الفرس والروم غلا أن مقاديره ومسافاته لم تكن ثابتة، وفي الدولة العربية الإسلامية أخذ البريد بالانتظام وأصبحت له مسافات معلومة، فسكة البريد بين كل محطتين تبلغ (١٢) ميل وقدرة الفقهاء وعلماء المسالك بأربعة فراسخ، وإذا ما علمنا أن الميل الشرعي يساوي (١٨٤٨ متر)، فإن الفرسخ يساوي (٥٥٤٤ متر) وسكة البريد الواحدة تساوي (٢٢.١٧٦ كيلو متر) وهي مسافة قصر الصلاة أيضاً[١].

مسالكه ورسله:

البريد اسم للمسافة التي بين كل محطة وأخرى من محطات البريد، ثم أطلقت على حامل الرسائل وأطلقت بعد ذلك على كيس البريد وأقيم له عامل سمي (عامل البريد) ينقل أخبار الولاة والعمال وسائر أمور الدولة إلى مقر دار الخلافة وبالعكس[٢]، وكانت طرق ومسالك البريد كثيرة جداً أوردها البلاذري[٣] وبالتفصيل ولا يتسع المجال هنا لذكرها، وهناك محطات كثيرة أيضاً على هذه الطرق، وكان لصاحب البريد منزل خاص به في محطات البريد وأحياناً داران لصاحب البريد مما يدلل على تعاظم مكانته وأميته في الدولة[٤].

ومما يشير إلى أهمية الرسول الذي يحمل البريد ما جاء به ابن طباطبا: "ومن الأمور المهمة للملك حسن نصرت في إرسال الرسل فبالرسول يستدل على حال المرسل، قال بعض الحكماء: إذا غاب عنكم حال الرجال ولم تعلموا مقدار عقله فانظروا إلى كتابه ورسوله، فهما شاهدان لا يكذبان، ويجب أن يكون في الرسول خصال منها العقل ليميز به الأمر المستقيم من المعوج والأمانة والعفاف لئلا يخون مرسله، فكم من رسول برقت له بارقة طمع من جهة من أرسل إليه فحفظ جانبه وترك جانب مرسله"[٥].

وكانت على هذه السكك دواب للبريد[٦]، وأول ما استعمل العرب لنقل البريد الإبل ثم استبدلوها بالبغال ثم الخيل لسرعتها، وكانت هناك خيول توضع في المحطات لاستبدال الفرس الذي يتعب بآخر مستريح حتى يواصل سفره بأقل فترة ممكنة[٧]، وكان الرسل حملة البريد يسيرون مع القوافل للتنقل والأسفار كانوا أعظم المساعدين لادلالهم على الطرق والمسلك ما بين البلاد الشاسعة بكل ضبط، وهذه الوظيفة كانت من الوظائف الكبيرة بحيث أن الخليفة نفسه يولي ذو الأهلية لها[٨].

أما البريد المتناقل بين الخلفاء والولاة فيختصرها ابن النديم في كتابه الفهرست بما يلي: "في المنتخبين، في الحريق، في الاستسقاء، في الصلة، في الأمان، في الشوق، وما يجري في العمل، في رؤية الهلال والأعياد في العزل، طلب الحوائج، الانقطاع في العدل"[٩].

---

[١]. الكتاني، عبد الحي، نظام الحكومة النبوية، دار الكتاب العرب، بيروت، (د.ت)، ص١٩١.

[٢].الكتاني، المصدر السابق، ص١٩٢.

[٣]. البلاذري، أحمد بن يحيى(ت٢٧٩هـ)، فتوح البلدان، تحقيق: رضوان محمد رضوان، مطبعة السعادة، مصر، (١٩٥٩م)، ص ص٧٧-١٢٩.

[٤]. قدامة بن جعفر(٣٢٩هـ)، الخراج وصناعة الكتابة، شرح وتعليق: محمد حسين الزبيدي، دار الرشيد، بغداد، (١٩٨١م)، ص٨٢.

[٥]. ابن طباطبا، تاريخ الدولة الإسلامية، دار صادر، دار بيروت، بيروت، (١٩٦٠م)، ص٦٨.

[٦]. قدامة، المصدر السابق، ص١٢٥.

[٧]. الكتاني، المصدر السابق، ص١٩٢.

[٨]. المصدر نفسه، ص١٩٣.

[٩]. ابن النديم، الفهرست، المطبعة الرحمانية، مصر، (د.ت)، ص١٨٣.

كما أرسل البريد على السفن في البحار والأنهار، ولكن بشكل محدود، وكانت للنيران ودخانها اصطلاحات بين الأبراج والرباطات الساحلية وهذه الاصطلاحات كانت خاصة، يتفاهمون بها، فيخبر كل برج البرج الذي يليه، كتحذيرهم من سفن معادية متسللة، وكان على شاطئ البحر المتوسط من الاسكندرونة إلى الرباط عاصمة المغرب حالياً ألف رباط وذلك بمعدل رباط واحد كل ستة كيلومترات لمراقبة الشواطئ والتحذير من الغارات المعادية[١].

المبحث الأول

البريد في عهد الرسول (ص)

إن مما تجدر الإشارة إليه أن ورود لفظة البريد في أحاديث الرسول الكريم ﷺ تدلل على اعتياد العرب له قبل بعثته ﷺ، من ذلك ما جاء في صحيح البخاري من إشارة إلى محطات البريد القديمة، حيث ذكر أن النبي ﷺ: "كان ينزل تحت سرحه[٢] سرحه[٢] ضخمة دون الرويثة[٣] عن يمين الطريق ووجاه الطريق في مكان بطح سهل حتى يفضي من أكمه[٤] دوين البريد البريد بميلين"[٥].

وورد في اللفظ قول الرسول ﷺ: "إني لا أخيس بالعهد ولا أحبس البرد"[٦]، ومع ذلك فإنه ينبغي الإشارة إلى أن المصادر العربية لم تفصح عن وجود بريد منظم كدائرة لها قوانينها في عهد الرسول ﷺ، غلا أن ذلك لا يلغي عملية التراسل الأكيدة التي حصلت بينه ﷺ وبين قادته وعماله والملوك المعاصرين له وكما سيأتي تبيانه لاحقاً.

وكما هو معلوم أن الرسول ﷺ جاء مبشراً ونذيراً للبشرية جمعاء، لذا كان ﷺأن يرسل الرسل إلى الأصقاع والممالك يدعوهم بدعوة الإسلام، لذا فقد قام الرسول ﷺ بالكتابة إلى الملوك وأرسل لهم الرسل [٧] ، واحتاج ذلك إلى اختيار دقيق، أي أن الرسول سيحمل الرسالة يجب أن يكون ممن يحمل صفات الإخلاص والصبر والمعرفة بالمسالك واللغات أحياناً، إضافة إلى تحليه بالصدق والأمانة.

خاتم النبوة:

ولما أراد الرسول ﷺ أن يكتب إلى ملك الروم قيل له: "إنهم لا يقرؤون الكتاب إلاّ أن يكون مختوماً"[٨]، أي ليكون ذلك ذلك دلالة على أن هذه الرسالة فيها من الأخبار المعروضة عليهم مالا ينبغي لأحد غيرهم الإطلاع عليها، والغرض من ذلك تجنب التزوير، واتخذ الرسول ﷺ خاتم من فضة نقش عليه: (محمد رسول الله) في ثلاثة أسطر تقرأ من الأسفل إلى

---

[١]. البلاذري، المصدر السابق، ص ص١٣٤–١٣٥.

[٢]. سرحه: شجر كبير ينبت في نجد في السهل. البكري، عبد الله بن عبد العزيز (ت ٤٨٧هـ)، معجم ما استعجم، تحقيق: تحقيق: مصطفى السقا، ط٣، عالم الكتب، بيروت ، (١٤٠٣هـ)، ص١٢٤.

[٣]. الرويثة: بين مكة والمدينة. الحموي ياقوت بن عبد الله (ت٦٢٦هـ)، دار الفكر، بيروت، (د.ت)، ج٣، ص١٠٥.

[٤]. أكمه: مرتفع. البكري، المصدر السابق، ج٣، ص٦٨٦.

[٥]. البخاري، محمد بن اسماعيل (ت٢٥٦هـ)، الجامع الصحيح، تحقيق: مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، بيروت، (١٩٨٧م)، ج١، ص١٨٣.

[٦]. أبو داود، سليمان بن الأشعث السجستاني (ت٢٧٥هـ)، سنن ابي داود، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر، بيروت، (د.ت)، ج٣، ص٨٢.

[٧]. ابن هشام، عبد الملك (٢١٣هـ)، السيرة النبوية، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، دال الجيل، بيروت، (١٤١١هـ)، ج٦، ج٦، ص١٣.

[٨]. البلاذري ، المصدر السابق، ص ص ٤٤٧ – ٤٤٨ .

أعلى، فمحمد آخر السطر، ورسول في الوسط، والله فوق[١]"، فكان الرسول ﷺ يختم به ولا يستغني عنه فه في ختم كتبه إلى عماله وقادة سراياه، والرسول ﷺ أول من ختم الكتاب من قريش أهل الحجاز حين أراد مكاتبة الملوك[٢]، وكان أبو بكر بكر رضي الله عنه يختم بخاتم الرسول ﷺ ثم عمر بن الخطاب ﷺ ثم عثمان بن عفان ﷺ إلى أن أسقط الخاتم من يده في بئر فاتخذ خاتماً غيره ونقش عليه: محمد رسول الله، على غرار خاتم الرسول ﷺ [٣].

افتتاح كتبه ﷺ

وكان الرسول ﷺ يفتتح كتبه التي يرسلها بـ(بسم الله الرحمن الرحيم) بعد أن كان ﷺ يكتب في افتتاح كتبه كما كانت تكتب قريش (باسمك اللهم) حتى نزل عليه قوله تعالى: (اركبوا فيها باسم الله مجراها)[٤]، فكتب الرسول ﷺ (باسم الله) إلى أن نزل قوله تعالى: (قل ادعوا الله وادعوا الرحمن أياماً تدعوا فله الأسماء الحسنى)[٥] فكتب الرسول ﷺ (باسم الله الرحمن) حتى نزل عليه قوله تعالى: ﴿إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم﴾[٦]، فكتب الرسول ﷺ (بسم الله الرحمن الرحيم) في افتتاح كل كتبه ومراسلاته، فبعث صلى الله عليه وسلم عبد الله بن حذافة السهمي إلى ملك الفرس كسرى ابرويز بن هرمز وكان في المدائن في العراق تلك الفترة وعندما وصله كتاب الرسول صلى الله عليه وسلم مزقه[٧]، وبعث الرسول ﷺ دحية بن خليفة الكلبي إلى هرقل ملك الروم، وعمرو بن أمية الضمري أرسله إلى نجاشي ملك الحبشة والعلاء بن الحضرمي إلى المنذر بن ساوي أخا بني عبد القيس صاحب البحرين، وسليط بن عمرو العامر إلى هوذه بن علي الحنفي صاحب اليمامة، وشجاع بن وهب الأسدي إلى الحارث بن أبي شمر الغساني عامل هرقل على دمشق وأعمالها، وحاطب بن أبي بلتعه اللخمي وقيل العبس حليف بني أسد بن عبد العزى إلى المقوقس الفرقب النوني عظيم القبط ببلاد الإسكندرية ومصر[٨].

كتاب الرسول صلى الله عليه وسلم

أما كتاب الرسول ﷺ فقد استكتب عبد الله بن الأرقم يجيب عنه صلى الله عليه وسلم إلى الملوك وبلغ من أمانته عنده أنه كان صلى الله عليه وسلم يأمره أن يكتب إلى بعض الملوك وأن يختم وكان أميناً على كتب الرسول ﷺ لا يطلع عليها أحد[٩]، وكان معاوية بن أبي سفيان يكتب للرسول ﷺ رسائله إلى البوادي، وكانت كتبه على رقعة من أدم (جلد)[١٠].

وبعد انتشار الإسلام في جزيرة العرب ، كانت ترد رسول الله ﷺ أخبار أرجائها، فعندما تنبأ الأسود العنسي مثلاً كتب صلى الله عليه وسلم كتاباً حمله وبر بن يخنس الأزدي، يأمر المسلمين الذين هناك بمقاتلة الأسود العنسي ومصاولته، وقام معاذ بن جبل – الذي كان معلماً وهادياً في اليمن – بهذا الكتاب أتم قيام[١].

---

[١]. ابن هشام ، المصدر السابق، ج٤ ، ص ١٨٨ .

[٢]. الكناني ، المصدر السابق، ص ١٧٧ .

[٣]. البلاذري ، المصدر السابق، ص ٤٤٨ .

[٤]. سورة هود ، آية ٤١ .

[٥]. سورة الإسراء ، آية ١١٠ .

[٦]. سورة النمل ، آية ٣٠ .

[٧]. البخاري، المصدر السابق، ج٣، ص٩٠؛ المسعودي، علي بن الحسين بن علي (ت ٣٤٦هـ)، كتاب التنبيه والإشراف، والإشراف، مكتبة خياط، بيروت، (١٩٦٥م)، ص ٢٥٩.

[٨]. المصدر نفسه، ص ص٢٤٠–٢٤١ .

[٩]. الكتاني، المصدر السابق، ج١، ص ص١٢٠–١٢١.

[١٠]. الحلبي، علي بن برهان الدين (ت١٠٤٤هـ)، السيرة الحلبية، دار المعرفة، بيروت، (١٤٠٠هـ)، ج٢، ص٢٢١.

وكان الرسول ﷺ يعنون كتبه بلفظ (من محمد رسول الله إلى فلان) وتكون كتابته من محمد رسول الله على يمين الكتاب، والى فلان على يسار الكتاب[٢].

وذكر هشام بن عروة قال: "رأيت رسائل من رسائله صلى الله عليه وسلم كلما انقضت قصة قال أما بعد"[٣].

نماذج من كتب الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الملوك

وقد كتب للرسول ﷺكل من علي بن أبي طالب عليه السلام وعمر بن الخطاب رضي الله عنه وزيد بن ثابت والمغيرة بن شعبة ومعاوية بن أبي سفيان يكتبون القرآن الكريم والكتب التي كان النبي ﷺ يرسلها إلى الملوك والأمراء[٤].

ويذكر الطبري أن أصح كتاب حفظه لنا التاريخ من كتبه ﷺ كتابه إلى هرقل عظيم الروم: "بسم الله الرحمن الرحيم من محمد عبد الله أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين فان توليت فان عليك إثم البريسين[٥]، ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلاّ الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا أرباباً من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون"[٦].

وكتب الرسول ﷺ إلى المقوقس: "بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى المقوقس عظيم القبط، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام، فاسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين قل أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء ..."[٧].

وجاء في كتابه ﷺ إلى النجاشي ما يلي: "بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى النجاشي الأصحم ملك الحبشة سلام أنت فإني أحمد إليك الله الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن، وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله وكلمته، ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة، فحملت بعيسى، فخلقه الله من روحه ونفخه كما خلق آدم ونفخه، وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له والولاة عل طاعته، وأن تتبعني وتأمن بالذي جاءني فإني رسول الله، وقد بعثت إليك ابن عمي جعفراً ونفراً معه من المسلمين فإذا جاءوك فاقرهم ودع التجبر فإني أدعوك وجنودك إلى الله، فقد بلغت ونصحت فاقبلوا نصحي، والسلام على من اتبع الهدى"[٨].

وكتب إلى ملك الفرس: "من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله، وأدعوك بدعاية الله عز وجل فإني رسول الله إلى الناس كافة ولأنذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين واسلم تسلم، فإن توليت فإن إثم المجوس عليك"[٩].

---

[١]. الطبري، محمد بن جرير (ت٣١٠هـ)، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، بيروت، (د.ت)، ج٢، ص٢٤٧.

[٢]. القلقشندي، المصدر السابق، ج٦، ص١٣٩.

[٣]. المصدر نفسه، ج٦، ص١٤٠.

[٤]. الجهشياري، المصدر السابق، ص٦٤.

[٥]. الطبري، المصدر السابق، ج٣، ص٨٧.

[٦]. سورة آل عمران، آية ٦٤.

[٧]. القلقشندي، المصدر السابق، ج٦، ص٣٧٦.

[٨]. المصدر نفسه ، ج٦، ص ص٣٧٦–٣٨٠.

[٩]. المصدر نفسه ، ج٦، ص٣٨٠.

المبحث الثاني

البريد في عهد الخلفاء الراشدين

إن الأثر الذي تركه البريد في عهد الخلفاء الراشدين أثراً فعال، إذ كان الخلفية أبو بكر الصديق ﷺ على اتصال دائم ومستمر مع جيوشه كلها في حروب الردة تصله أخبارها بانتظام، وبشكل سريع، وبرز من الرسل ما بين الجبهات وبين مقر القيادة أبو خيثمة النجاري وسلمة بن سلامة وأبو برزة الأسلمي وسلمة بن وقش، فكان ﷺ على اتصال دائم مع كل الجبهات، يعلم دقائق أمورها وتحركاتها وما حققت وما عليها في غدٍ من واجبات[١].

واشتهر أمر البريد في عهد الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ، وأصبح للبريد دار فعال في الأمصار تعرف بدار البريد، فقد كانت في الكوفة دار للبريد كانت تنزل فيه عندما تأتي بالبريد وكانت الدار في طرف البلد[٢].

وفي سيرة عمر لابن الجوزي في ذكره عسسه في المدينة وبعض ما جرى له في ذلك ان الخليفة عمر بن الخطاب كان قد ابعد بن الحجاج إلى البصرة، وعندما أراد عامله على البصرة إرسال البريد إلى المدينة نادى المندي: "ألا أن بريد المسلمين يريد أن يخرج فمن كانت له حاجة فليكتب، فكتب نصر بن الحجاج كتاباً ودس في الكتاب إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب"[٣]، إن هذه الرواية توضح لنا بجلاء أن البريد لم يقتصر على الرسائل الرسمية بين الخليفة وعماله، بل امتد ليشمل سائر مصالح المسلمين، فيوّصل عمال البريد رسائل المسلمين إلى بعضهم البعض، وكان الخليفة عمر بن الخطاب يدير جبهات القتال في العراق والشام ومصر من مقر قيادته في مكانه في المدينة المنورة، فيرسم الخطط ويبعث بأوامره وتعليماته إلى قادته، وكانت مراسلاته مع الجبهات يومية، وترد أخبارها اليه يومياً، وتباع أعمال (عماله وولاته) وتحركاتهم، فيعرف أخبارهم بالتفصيل، ونلمس ذلك في كثرة كتبه إلى عماله وعمالهم، فحينما أرسل القائد سعد بن أبي وقاص يستشير الخليفة عمر بن الخطاب في موضوع تقسيم الغنائم والأراضي على المقاتلين بطلب منهم، كتب الخليفة عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبي وقاص ما يلي: "أما بعد. فقد بلغني كتابك تذكر أن الناس سألوك ..."[٤]، مما يدلل على أن هذا الرد كان على رسالة أرسلها له قائده سعد بن أبي وقاص، وهذا يعني أن المراسلة كانت فورية ومباشرة لاستشارة الخلفاء في أمور التحرير والفتح وأن الرد عليها كان سريعا، وهذا يتطلب بطبيعة الحال عدداً كبيراً من الرسل وآلية متطورة لنقل هذه الرسائل والى معرفة واسعة بأقصر الطرق والمسالك، إضافة إلى أن القائد كان يرسل بشيراً إلى المدينة المنورة يحمل بشرى النصر"[٥].

البريد العسكري

ألا أن أول إشارة تاريخية وصلت إلينا تفيد في إسهام البريد بعملية نقل الأخبار بين مقر الخلافة والقيادات الحربية تعود إلى عام (١٣هـ)، حيث ورد أن: "البريد قدم على المسلمين من المدينة بموت أبي بكر، وبعزل خالد وتأمير أبي عبيدة وهم باليرموك وقد التحم القتال بينهم وبين الروم"[٦]، غير أن عملية التواصل بين مقر الخلافة وقيادات الحملات العسكرية

---

[١]. ابن الأثير، أبو الحسن علي بن كرم (ت٦٣٠هـ)، الكامل في التاريخ، دار الكتاب، بيروت، (د.ت)، ج٢، ص٢٢٨.

[٢]. الكتاني، المصدر السابق، ص١٩٢.

[٣]. المصدر نفسه، ص١٩٢.

[٤]. قدامة، المصدر السابق، ص٣٦٢.

[٥]. صالح، خولة عيسى محمد، نشأة وتطور البريد في الدولة العربية الإسلامية حتى عام ٣٣٤هـ، أطروحة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة بغداد، (١٩٨٥م)، ص٣٨.

[٦]. الطبري، المصدر السابق، ج٣، ص٤٣٥.

تصبح أكثر وضوحاً في خلافة عمر بن الخطاب ﷺ، حيث ترد إلينا العديد من الإشارات بين طيات كتب التاريخ تحمل رسائل متبادلة بين الخليفة وهذه القيادات وكأن ساحات القتال على مرأى من الخليفة الذي يقيم في المدينة المنورة وهذا ما أكدته النصوص التاريخية الواردة بهذا الشأن، ففي هذا الصدد يكتب الخليفة عمر إلى القائد سعد بن أبي وقاص في معركة القادسية (١٤هـ): "بلغك إلى أين بلغك جمعهم ومن رأسهم ... والذي استقر عليه أمر عدوكم فصف لنا منازل المسلمين، والبلد الذي بينكم وبين المدائن صفه كأني أنظر إليها واجعلني من أمركم على الجلية"[١].

وكانت أخبار حروب تحرير الشام تصل إلى الخليفة عمر بن الخطاب أولاً بأول، ففي عام (١٤هـ) قدم: "البريد إلى عمر بفتح دمشق"[٢] مع عقبة بن عامر الجهمي، وتشير الرواية إلى أنه قطع المسافة من دمشق إلى المدينة المنورة خلال أسبوع كامل، فحين سأله الخليفة عمر بن الخطاب حال قدومه: "متى عهدك قال يوم الجمعة وهذا يوم الجمعة"[٣]، الأمر الذي يوحي بوجود بريد منظم يوجه في أوقات معينة إلى ميادين القتال يضاف إلى ذلك ما تستدعيه الضرورات الحربية حسب المواقف المختلفة من إرسال الرسل وقت الحاجة، وهذا يعني أن نظام الحكومة المركزية كان قائماً على أسس إدارية رصينة ومنها البريد.

نفقات البريد

وهناك من الشواهد التاريخية ما تشير إلى أن النفقات على البريد كانت تصرف من بيت مال المسلمين وأن البريد تعدى إلى خارج حدود الدولة الإسلامية، وهذا ما يؤكده الطبري في روايته عن تبادل الهدايا بين أم كلثوم زوجة الخليفة عمر بن الخطاب وبين زوجة ملك الروم، وكيف أن عمر ﷺ رفض تسليم هدية زوجة ملك الروم إلى أم كلثوم وأدى لها ما نفقت في هديتها لزوجة ملك الروم وأمر برد الهدية إلى بيت المال لأن نفقات البريد كانت من بيت المال ولا يجوز أن يستغل لأغراض شخصية خاصة[٤].

وكان البريد يقوم بدور اجتماعي عام كما هو الحال في نقل الرسائل بين المقاتلين وزوجاتهم في المدينة المنورة وغيرها من المدن والنواحي والتي كانت الغاية منها توفير حالة من الاطمئنان والاستقرار النفسي لكلا الطرفين[٥]، كما ساعد البريد على حمل مطالب وشكاوى الناس في مختلف الولايات في الدولة إلى الخليفة في مقر خلافته، فبفضل رقابة عمال البريد في الولايات كان الخليفة عمر بن الخطاب يتعرف على دقائق أمور عمله في الولايات[٦].

وضع التاريخ على الرسائل

إلا إننا نرى أن أهم ما تميز به البريد في عهد عمر بن الخطاب ﷺ استحداثه التاريخ الهجري، فصارت الكتب تؤرخ لأول مرة بعد الإسلام فأرخ في سنة ١٦ من هجرة الرسول ﷺ من مكة إلى المدينة[٧].

وعندما تولى عثمان بن عفان ﷺ الخلافة حافظ على هذا النظام، حيث أشير إلى وجود اختصاصات البريد والختم في عهده[١]، ولا يمنع أن يكون الأمر كذلك إذ بان خلافة الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، خاصة وأنه كان على اتصال دائم بعماله وولاته في مختلف أقاليم الدولة[٢].

---

[١]. الطبري، المصدر السابق، ج٣، ص ٤٩١.

[٢]. ابن كثير، إسماعيل بن عمر (ت٧٧٤هـ)، البداية والنهاية، مكتبة المعارف، بيروت، (د.ت)، ج٧، ص٢٤.

[٣].الطبري، المصدر السابق، ج٤، ص٣٦٠؛ صالح، المصدر السابق، ص٤٤.

[٤]. الطبري، المصدر السابق، ج٤، ص٣٦٠؛ صالح ، المصدر السابق، ص٤٤.

[٥]. صالح، المصدر السابق، ص٤٣.

[٦]. العسقلاني، أحمد بن علي (ت٨٥٢هـ)، الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت، (١٩٩٢م)، ج٤، ص٥٢٠.

[٧]. ابن الجوزي، سيرة عمر بن الخطاب، مكتبة الهلال، مصر، (١٩٨٩م)، ص٤٢.

أبرز كتاب الخلفاء الراشدين

وكان للخلفاء الراشدين كتابا يكتبون لهم الرسائل يثقون بهم، فقد اتخذ الخليفة أبو بكر الصديق عثمان بن عفان كاتبا له، فيما كان زيد بن ثابت وعبد الله بن الرقم يكتبون للخليفة عمر بن الخطاب، واتخذ الخليفة عثمان بن عفان مروان بن الحكم كاتباً له، وكان عبد الله بن رافع[٣] كاتباً عند الإمام علي بن أبي طالب ، ومما يذكر في هذا الصدد أن الخليفة الرابع علي بن أبي طالب قال لكاتبه عبد الله بن رافع: "يا عبد الله ألق دواتك"[٤]، وأطل شباة[٥] قلمك، فرج بين السطور، وقرمط[٦] بين الحروف"[٧].

محاولة تزوير الخاتم

وفي فترة خلافة عمر بن الخطاب ﷺ قام رجل اسمه معن بن زائدة بتزوير خاتم الخلافة ونقش خاتم مشابه له حصل من خلاله على بعض المال من خراج الكوفة، فلما علم بذلك الخليفة عمر بن الخطاب كتب إلى المغيرة بن شعبة في البصرة أرسل له رسولاً، وأمر عمر ﷺ المغيرة في رسالته أن يطيع الرسول الذي أرسله له وان يمتثل لأوامره، فألقي القبض على معن بن زائدة وأودع في سجن من قصب، واستطاع معن الهرب من سجنه وسار إلى الخليفة في المدينة تائباً، ولكن الخليفة عمر لم يسامحه أودعه السجن ولم يطلق سراحه إلاّ بعد فترة من الزمن بعد ان قاسمه ماله[٨].

المبحث الثالث

البريد في عهد الدولة الأموية

إن البريد في عصر الدولة الأموية تطور واتسع، أصبحت له دوائر وقوانين وعمال وديوان خاص به يعرف بديوان البريد، ويرجع ذلك إلى اتساع رقعة الدولة العربية الإسلامية ، ويمكن القول أن ذلك دفع الأمويين إلى استخدام البريد على نطاق واسع، فنظمه معاوية بن أبي سفيان[٩]، إلاّ أن عبد الملك بن مروان[١٠] أحسن تنظيمه أتم عمل معاوية فقد احكمه وأعطاه طابعه النهائي، ووضع (الصُوّى)[١١] على الطرق لترشد المسافر إلى الاتجاه وتحدد المسافة المتبقية، وهذه قمة في التطور الحضاري لازلنا نشهده على الطرق إلى يومنا هذا وفي جميع أصقاع المعمورة، وأوصى رجاله بحمل البريد في أي ساعة ليلاً ونهاراً[١٢]، فتأخير البريد ساعة من النهار إضرار سنة بمصالح العباد، وقال لحاجبه يوماً: "وليتك حجابة بابي إلاّ عن أربعة: المؤذن فانه داعي الله فلا حجاب عليه، وطارق الليل فشَرُ ما أتى به ولو وجد خيراً لنام، والبريد فمتى جاء من

---

(١). خليفة بن خياط (ت٢٤٠هـ)، تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق: أكرم ضياء العمري، دار القلم، بيروت، (١٩٧٧م)، ص١٦٩.

(٢). الطبري، المصدر السابق، ج٤، ص٤٤٣.

(٣). عبد الله بن رافع الغافقي من حمير له أحاديث، توفي في خلافة هشام بن عبد الملك سنة ١١١هـ عن عمر ٨٥ سنة في المدينة. ابن سعد، محمد (٢٣٠هـ)، الطبقات الكبرى، دار صادر، بيروت، (د.ت)، ج٥، ص٢٥٦.

(٤). أي اجعل لها ليقة وهي خرقة توضع في الحبر.

(٥). برية القلم.

(٦).أي الدقة في الكتابة والتقريب بين الحروف.

(٧).الجهشياري، المصدر السابق، ص٢٣.

(٨). قدامة، المصدر السابق، ص ص٥٦–٥٧.

(٩). ٢٠ ق.هـ–٦٠هـ، وخلافته من ٤١–٦٠هـ. ابن كثير، المصدر السابق، ج٢، ص١١٨.

(١٠). ٢٦–٨٦هـ، خلافته من ٦٥–٨٦هـ. خليفة بن خياط، المصدر السابق، ج٢، ص٢٩٢.

(١١). الصوى: حجر على قارعة الطريق تكتب عليها المسافة، ويثبت عليها الاتجاه.

(١٢). ابن كثير، المصدر السابق، ج٩، ص٥٧.

ليل أو نهار فلا تحجبه فربما أفسد على القوم سنة إذا حبس البريد ساعة، والطعام إذا أدرك"[١]، وهذا القول يمثل الإدراك الصحيح لأهمية البريد وخطورته الكبيرة إذا أخر الرد عليه أو النظر فيه، وقد كان قبيصة بن ذؤيب على بريد عبد الملك بن مروان: "وأنه كان يقرأ الكتب إذا وردت، ثم يدخلها على عبد الملك فيخبره بما فيها"[٢].

ديوان البريد

لقد كانت للظروف السياسية العسكرية في فترة الأمويين سبباً في تطور النظم الإدارية وخاصة البريد العسكري، مما استدعى إلى إيجاد ديوان خاص به عرف بديوان البريد والمرجح أن ظهور هذا الديوان بشكل بارز ومتطور كان على أيام خلافة عبد الملك بن مروان بعد أن استقر به الحال وفرغ من القضاء على الحركات المناوأة، مما يشير إلى الدور الفاعل الذي لعبه هذا الجهاز الإداري في رسم نتائج الحروب لصالح الأمويين[٣].

الجهاز الإداري لديوان البريد

أ. صاحب البريد :

وهو المسئول عن إدارة الديوان والإشراف علي وعلى عماله جميعاً، كما كان يقوم بإيصال ما يصدر عن الخليفة من تقارير وأوامر إلى العمال في الأقاليم بأسرع الطرق وأقصرها وإعادة ردودهم إلى الخليفة ويقوم بترتيب الخرائط بمساعدة عماله[٤]، وقد تقلد منصب (صاحب البريد) جملة من الشخصيات المعروفة كان من بينهم العلماء والفقهاء الشعراء وبعض الشخصيات الإدارية[٥].

ب. عمال البريد:

١. **ولاة البريد:** كان لكل ولاية بريد، يتبعه عمال آخرون يعاونونه على تصريف شؤون البريد في مركز عمله، وإضافة إلى ذلك كان على عامل بريد الولاية موافاة الخليفة بجميع الشؤون الهامة في ولايته، وتزويده بما يدور فيها من أحداث، لذا أعطي حق التخبر على جميع العمال فيها[٦]، وكان من حق صاحب البريد ان يبدي رأيه في عملية اختيار عماله في الولايات إلاّ أن تعيينهم كان يصدر عن الخليفة نفسه[٧].

٢. **المرتبون:** وهم السعاة المسؤولين عن تأمين الخرائط في الأوقات المحددة، وفي حقائب خاصة، من سكة إلى أخرى[٨].

٣. **الموقعون:** وكان هؤلاء يقومون بتثبيت أوقات انطلاق الرسل ووصولهم من أجل "ضبطها حتى لا يتأخر أحد منهم عن الأوقات التي سبيله أن يرد السكة فيها"[٩].

٤. **الفروانقيون:** وكانوا بمثابة رؤساء خطوط البريد الذين يتولون قيادة البريد في السفر، ويلاحظون سير السعاة والخيالة وحالة المحطات ويمكن تشبيههم بالمفتشين[١٠].

---

[١]. ابن عبد ربه، احمد بن يحيى، العقد الفريد، بيروت، (١٩٦٥م)، ج١، ص٧١.

[٢]. ابن عبد ربه، احمد بن يحيى، العقد الفريد، بيروت، (١٩٦٥م)، ج١، ص٧٢.

[٣]. الطبري، المصدر السابق، ج٦، ص٣٣٩.

[٤]. قدامة، المصدر السابق، ص٧٧.

[٥]. الجهشياري، المصدر السابق، ص ص٢٠٤-٢٤٩.

[٦]. قدامة، المصدر السابق، ص ص٥٠-٥١.

[٧]. المصدر نفسه، ص٥٠.

[٨]. قدامة، المصدر السابق، ص٥٢.

[٩]. المصدر نفسه، ص٥٢.

[١٠]. الطبري، المصدر السابق، ج٦، ص٣٣٩.

٥. **السعاة:** وهم من عمال البريد الذين يكلفون بنقل البريد على الأقدام، أي عن طريق السعي – الجري والعدو – وكان ذلك من اختصاص أهل البراري[١].

٦. **الفيوج:** هم رسل البريد الذين ينقلون الأخبار من بلد إلى آخر[٢]، ويبدو أنهم كانوا مسؤولين عن نقل البريد بين الأماكن الأماكن المتباعدة.

٧. **الشعوذي:** وهو رسول الأمراء على البريد، وورد ذكره عند ابن سعد بقوله: "إن ربيعة الشعوذي حدثهم، قال: ركبت البريد إلى عمر بن عبد العزيز، فانقطع في بعض أرض الشام فركبت السخرة حتى أتيته ... فقال: ما جعل جناح المسلمين؟ قال، قلت: وما جناح المسلمين يا أمير المؤمنين؟ قال: البريد ... "[٣]، ويبدو من هذه الرواية ان الشعوذي كانت مهمتهم نقل البريد العسكري.

٨. **الكوهبانية:** هم أصحاب الأخبار الذين يستطلعون أخبار العدو في أوقات الحرب[٤].

٩. **الأمناء:** وهي تسمية أطلقها الخليفة المهدي على رسله الذين أدوا رسائله إلى العمال في الأقاليم[٥].

١٠. **الركبان:** تسمية تطلق للدلالة على الرسل الذين يركبون الدواب[٦].

هذا فضلاً عن وجود عمال آخرون مهمتهم تهيئة العلف لدواب البريد والاهتمام بمحطات البريد والعناية بدواب البريد والإشراف على الإسطبلات وتهيئة مستلزماتها إضافة إلى جملة من الوظائف الكتابية[٧].

النتائج:

لم يكن للعرب لاسيما عرب الجزيرة نشاطات إدارية معروفة على نطاق واسع أو حتى محدود أحياناً لما لطبيعة الحياة التي فرضتها الظروف البيئية المعروفة في تلك الفترة من جهة، وقلة احتكاكهم بالنظم المتطورة المجاورة لهم من جهة أخرى، وما أن رجالات هذه المنطقة هم الذين قادوا دفة الدولة العربية بعد ظهور الإسلام، لذا كان من المؤكد افتقار هذه الدولة في بداياتها الأولى على الأقل إلى نظم إدارية متطورة أسوة بباقي الدول المعروفة آنذاك.

إلاّ إننا نرى فيما تقدم في البحث أن العرب المسلمون لم يكتفوا بأخذ النظم الإدارية من الشعوب التي احتكوا بها فحسب، بل طوروها وهذبوها وأبدعوا فيها فأنتجوا نظماً قمة في التطور الحضاري ومن هذه النظم كان البريد الذي تين مما سبق أنه لم يقتصر على نقل الأخبار بين الأصقاع فحسب، بل تعداه إلى أن يكون جهاز إداري استخباري إذا جاز التعبير، إضافة إلى أنه لم يكن خاص بالأنظمة الحاكمة بل شمل الخدمة البريدية الاجتماعية.

والنظام البريدي في الدولة العربية الإسلامية تطور بشكل كبير جداً لتكون له محطات وعمال وخدمات ومسالك خاصة ومسالك احتياطية أحياناً وإشارات متعارف عليها كإشارات الدخان بين المحطات، كل هذا كان لابد من أن يكون ورائه دافع لتطويره على هذا النحو إلاّ وهو التواصل المستمر مع جبهات القتال والجيوش الفاتحة والاطمئنان المباشر على سير الأعمال في الأمصار الإسلامية، واتضح لنا أن هناك حالة خصخصة في مهمات عمال البريد وهذا كله يؤكد على أن الدولة العربية الإسلامية خير من استغل وطور النظم الإدارية، وهذا ما يعكس الرقي الفكري والثقافي إضافة إلى الإداري عند العرب المسلمين.

---

[١]. القلقشندي، المصدر السابق، ج٥، ص٩٨.

[٢].الطبري ، المصدر السابق، ج٩ ، ص ٣٢٧ .

[٣]. ابن سعد، محمد سعد(٢٣٠هـ)، الطبقات الكبرى، دار صادر، بيروت، (د.ت)، ج٥، ص٣٧٤.

[٤]. ابن الأثير، المصدر السابق، ج٨، ص١٣٦.

[٥]. الطبري، المصدر السابق، ج٩، ص١٣٦.

[٦]. ابن منظور، المصدر السابق، مج١، ص ص٤٣٠–٤٣١.

[٧]. القلقشندي، المصدر السابق، ج٤، ص١٩.

قائمة المصادر

القرآن الكريم .

١. ابن الأثير، علي بن كرم (ت٦٣٠هـ)، الكامل في التاريخ، دار الكتاب، بيروت، (د.ت).
٢. ابن الجوزي، سيرة عمر بن الخطاب، مكتبة الهلال، مصر، (١٩٨٩م).
٣. ابن النديم، الفهرست، المطبعة الرحمانية، مصر، (د.ت).
٤. ابن سعد، محمد سعد (٢٣٠هـ)، الطبقات الكبرى، دار صادر، بيروت، (د.ت).
٥. ابن طباطبا، تاريخ الدولة الإسلامية، دار صادر، دار بيروت، بيروت، (١٩٦٠م).
٦. ابن عبد ربه، احمد بن يحيى، العقد الفريد، بيروت، (١٩٦٥م).
٧. ابن كثير، إسماعيل بن عمر (ت٧٧٤هـ)، البداية والنهاية، مكتبة المعارف، بيروت، (د.ت).
٨. ابن منظور، جمال الدين بن مكرم الأنصاري (ت٧١١هـ)، لسان العرب، مطابع كوسناتسوس، القاهرة، (د.ت).
٩. ابن هشام، عبد الملك (٢١٣هـ)، السيرة النبوية، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، دال الجيل، بيروت، (١٤١١هـ).
١٠. أبو داود، سليمان بن الأشعث السجستاني (ت٢٧٥هـ)، سنن ابي داود، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، ج٣، دار الفكر، بيروت، (د.ت).
١١. البخاري، محمد بن اسماعيل (ت٢٥٦هـ)، الجامع الصحيح، تحقيق: مصطفى ديب البغا، ط٣، دار ابن كثير، بيروت(١٩٨٧م).
١٢. البكري، عبد الله بن عيد العزيز (ت٤٨٧هـ)، معجم ما استعجم، تحقيق: مصطفى السقا، ط٣، عالم الكتب، بيروت، (١٤٠٣هـ).
١٣. البلاذري، أحمد بن يحيى (ت٢٧٩هـ)، فتوح البلدان، تحقيق: رضوان محمد رضوان، مطبعة السعادة، مصر، (١٩٥٩م).
١٤. الجهشياري، محمد بن عبدوس، الوزراء والكتاب، تحقيق: مصطفى السقا وآخرون، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، (١٩٣٨م).
١٥. الحلبي، علي بن برهان الدين (ت١٠٤٤هـ)، السيرة الحلبية، دار المعرفة، بيروت، (١٤٠٠هـ).
١٦. الحموي، ياقوت بن عبد الله (٦٢٦هـ)، معجم البلدان، دار الفكر، بيروت، (د.ت).
١٧. خليفة بن خياط (ت٢٤٠هـ)، تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق: أكرم ضياء العمري، دار القلم، بيروت، (١٩٧٧م).
١٨. الطبري، محمد بن جرير (ت٣١٠هـ)، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ج٢، دار المعارف، مصر، (د.ت).
١٩. العسقلاني، أحمد بن علي (ت٨٥٢هـ)، الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت، (١٩٩٢م).
٢٠. الفاضلي، خولة عيسى محمد، نشأة وتطور البريد في الدولة العربية الإسلامية حتى عام ٣٣٤هـ، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة بغداد، ١٩٨٥م.
٢١. قدامة بن جعفر (٣٢٩هـ)، الخراج وصناعة الكتابة، شرح وتعليق: محمد حسين الزبيدي، دار الرشيد، بغداد، (١٩٨١م).
٢٢. القلقشندي، أحمد بن علي (ت٨٢١هـ)، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، مطابع كوتساتسوماس، مصر، (د.ت).
٢٣. الكتاني، عبد الحي، نظام الحكومة النبوية، دار الكتاب العرب، بيروت، (د.ت).
٢٤. المسعودي، علي بن الحسين بن علي (ت٣٤٦هـ)، كتاب التنبيه والإشراف، مكتبة خياط، بيروت، (١٩٦٥).
٢٥. الواقدي، عبد الله بن عمر، فتوح الشام، دار الجيل، بيروت، (د.ت).